ثالثاً: الوصايا الجاهليّة

١- تَعْرِيفُ الوَصِيَّةِ وبعضُ ما أُلِّفَ فِيها:

الوصيّةُ الأدبيّةُ ضَرْبٌ منَ الأدبِ الرّفيع، يحملُ مِنَ النّصائحِ ما يَتَوَخَّى المُوصِي بها خَيْرَ المُوصَى، مِن أَمْرٍ بما يكون فيه خَيْرُه، ونَهْيٍ عمّا يكونُ فيه شَرُّه؛ والرُّجوعُ إلى الأصل اللُّغَويّ للوصيّة يكشِفُ جانباً من تعريفِها ومِن هدفِها، فالعربُ تقول: وَصَيْتُ الشَّيْءَ بِغَيْرِهِ إذا وَصَلْتَه، ومنه يُقالُ: أَرْضٌ وَاصِيَةُ النَّبات إذا اتَّصَل نَباتُها، وفَلاةٌ وَاصِيةٌ إذا اتّصلَتْ بفَلاةٍ أُخرى، وكلُّ مَنْ كانَتْ بينَهُ وبينَ غيرِهِ صِلَةٌ فهو وَصِيُّهُ، ومِنْ ثَمَّ كان معنى (الوَصِيَّةِ) الصِّلةَ الّتي أَرادَ المُوصِي أَنْ يَصِلَ بها المُوصَى، وهي الصِّلَةُ بينَ الوَصِيِّ ووَصِيِّه.

وقد جاءَنا عنِ الجاهليّينَ مجموعةٌ مِن الوصايا شِعْراً ونَثْراً، حَفِظَها العرَبُ إلى ما بعدَ الإسلام، ومَدارُ الحَديثِ هُنا عَمّا جاءَ نَثْراً، وقد أدرَكَ العلماءُ الأوائلُ قيمَتَها فخَصَّصوا لها كُتُبًا جَمَعُوها فيها، ككِتابِ (وصايا العرب) لهشامِ بنِ مُحَمَّدٍ الكَلْبيّ، و(الوصايا) لأَبي حاتِمٍ السَّجِستانِيّ، طُبِعَ مع كِتابِه (المُعَمَّرُون)، و(وَصايا المُلوكِ وأَنْباءُ أَبْناءِ المُلوك) أو (وصايا ملوك العرب في الجاهليّة) لأبي الطَّيِّبِ محمّد بن إسحاق بن يحيى النحويّ، ويُعرَفُ بابنِ الوَشّاءِ وهو مطبوع، وجُلُّ ما فيه مِن الوصايا والأشعار مُخْتَلَقٌ، ونُسِبَ لِدِعْبِلِ بنِ عليٍّ الخُزاعيّ الشّاعر، و(كتاب الوصايا) لأَبي حَنِيفةَ الدِّينَوَرِيّ؛ وفي هذا العصرِ جَمَعَ أحمد زَكِي صَفْوَت عدداً منها في كتابه (جَمْهَرَة خُطَبِ العَرَب)، وجَمَعَ مُحَمّد نايف الدُّلَيْمِيّ وَصايا العربِ في الجاهليّة والإسلام في كتابِه (جَمْهَرَة وَصايا العرب) في ثلاثة أجزاء، استأثَرَتْ وصايا الجاهليّةِ بِبَعْضِ الجُزْءِ الأَوَّل.

٢- دَواعِي الوصايا وأَمْثِلَةٌ مِنها:

يَلْحَظُ مُتَتَبِّعُ الوصايا الّتي وصلت إلينا من الجاهليّين أنّ الآباءَ والأمّهاتِ والملوكَ والسّادةَ والحكماءَ كانوا يُلْقُونَ وصاياهم إلى أبنائِهم وأبناءِ قبائلهم ومَنْ يُهِمُّهم فَلاحُهُمْ ونَجاحُهُمْ، يُلَخِّصُون فيها تَجارِبَهُمْ في الحياةِ بعدَما عَرَكَتْهُمْ وعَرَكُوها، فذَاقُوا حُلْوَها ومُرَّها، وخَبِروا خَيْرَها وشَرَّها، وعرفوا شِدَّتَها ولينَها.

وقد يتبادرُ إلى الأذهانِ أنَّ مِن شَرْطِ الوَصيَّةِ أَنْ يُلْقِيَها رَجُلٌ أَدْبَرَتْ عنه الحياةُ وأَقْبَلَ عليه الموتُ، فأَلْقَى وَصِيَّتَهُ كالمُوَدِّع، وليسَ هذا شَرْطاً ضَرُورِيّاً، فقد تكون مِن حَيٍّ لا يَزالُ في عُنْفُوانِهِ إلى حَيٍّ مِثْلِهِ ولكِنْ تَنْقُصُهُ خِبْرَتُهُ؛ على أَنَّ جُلَّ ما وَصَلَ إلينا مِن وَصايا الجاهليّينَ قالَهُ أُناسٌ مُعَمَّرُونَ.

ولا بُدَّ لمعرفةِ الوصايا الجاهليّة مِن الوقوفِ على بعضِ أمثلتها، لِلاطّلاع على بعضِ مضْمُونِها وبعضِ الظّواهر الفنّيّة الّتي قامت عليها.

أ– فمِن وصايا الجاهليّين عددٌ قليلٌ توجَّه بهِ الآباءُ أو الأمّهاتُ إلى أبنائِهم أو بناتِهم حينَ أَقْبَلُوا على الحياة الزّوجيّة، ومِن أشهر تلك الوصايا وصيّةُ أُمامةَ بنتِ الحارثِ الشَّيْبانيّةِ امرأةِ عَوْفِ بن مُحَلِّم الشَّيْبانيّ حينَ أَرادوا حَمْلَ ابنتِها إلى الحارثِ بنِ عَمْرٍو الكنديّ المَلِكِ، فقالت لها:

«أَيْ بُنيَّة! إنَّ الوصيّةَ لَوْ تُرِكَتْ لِفَضْلِ أَدَبٍ تُرِكَتْ لِذلِكِ مِنْكِ، ولكنَّها تَذْكِرَةٌ للغافِلِ، ومَعُونَةٌ للعاقِلِ؛ ولو أنَّ امرأةً اسْتَغْنَتْ عنِ الزَّوْجِ لِغِنى أَبَويْها، وشِدَّةِ حاجَتِهِما إلَيْها، كُنْتِ أَغْنى النّاسِ عنه، ولكنَّ النِّساءَ لِلرِّجالِ خُلِقْنَ، ولَهُنَّ خُلِقَ الرِّجالُ.

أَيْ بُنيَّة! إنّكِ فارَقْتِ الْجَوَّ الَّذي مِنْهُ خَرَجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الَّذي فيهِ دَرَجْتِ، إلى وَكْرٍ لَمْ تَعْرِفيهِ، وقَرِيْنٍ لَمْ تَأْلَفِيهِ، فأَصْبَحَ بِمُلْكِهِ عَلَيْكِ رَقيبًا ومَلِيكًا، فكُوني لَهُ أَمَةً يَكُنْ لَكِ عَبْدًا وَشِيْكًا!

يا بُنيّة! احْمِلي عَنِّي خِصالاً عَشْرًا، تَكُنْ لَكِ فَخْرًا وَذِكْرًا:

– الصُّحْبَة بالقَناعَةِ، والمُعاشَرَة بِحُسْنِ السَّمْعِ والطَّاعَة.

– والتَّعهُّد لِمَوْقِعِ عَيْنِهِ، والتَّفَقُّد لِمَوْضِعِ أَنْفِهِ؛ فلا تَقَع عَيْنُهُ مِنْكِ عَلى قَبِيحٍ، ولا يَشَمّ مِنْكِ إلّا طِيبَ رِيحٍ؛ والكُحْلُ أَحْسَنُ الحُسْنِ المَوْجُودِ، والماءُ أَطْيَبُ الطِّيبِ المَفْقُودِ.

– والتَّعَهُّد لِوَقْتِ طَعامِهِ، والهُدُوُّ عِنْدَ مَنامِهِ؛ فإنَّ حَرارَةَ الْجُوعِ مَلْهَبَةٌ، وتَنْغِيصَ النَّوْمِ مَغْضَبَةٌ.

– والاحْتِفاظ بِبَيْتِهِ ومالِهِ، والرِّعاية عَلى نَفْسِهِ وحَشَمِهِ وعِيالِهِ؛ فإنَّ الاحْتِفاظَ بالمالِ حُسْنُ التَّقْدِيرِ، والإِرْعاءَ عَلى العِيالِ والحَشَمِ جَمِيلُ حُسْنِ التَّدْبيرِ.

– ولا تُفْشِي لَهُ سِرًّا، ولا تَعْصِي لَهُ أَمْرًا؛ فإنَّكِ إنْ أَفْشَيْتِ سِرَّهُ لَمْ تَأْمَنِي غَدْرَهُ، وإنْ عَصَيْتِ أَمْرَهُ أَوْغَرْتِ صَدْرَهُ.

– ثُمَّ اتَّقِي مَعَ ذلِكِ الفَرَحَ إنْ كانَ تَرِحًا، والاكْتِئابَ عِنْدَهُ إنْ كانَ فَرِحًا؛ فإنَّ الخَصْلَةَ الأُولى مِنَ التَّقْصيرِ، والثّانيةَ مِنَ التَّكْديرِ؛ وكُوني أَشَدَّ ما تَكُونِينَ لَهُ إعْظامًا، يَكُنْ أَشَدَّ ما يَكُونُ لَكِ إكْرامًا، وأَشَدَّ ما تَكُونِينَ لَهُ مُوافَقَةً، يَكُنْ أَطْولَ ما تَكُونِينَ لَهُ مُرافَقَةً؛ واعْلَمِي أَنَّكِ لا تَصِلِينَ إلى ما تُحِبِّينَ حتّى تُؤْثِرِي رِضاهُ عَلى رِضاكِ، وهَواهُ عَلى هَواكِ، فِيما أَحْبَبْتِ وكَرِهْتِ؛ واللهُ يَخِيْرُ لَكِ!»، فحُمِلَتْ إليه، فعَظُمَ مَوْقِعُها منه، ووَلَدَتْ لَهُ مِنَ المُلُوكِ سَبْعَةً.

وأوصى أَكْثَمُ بنُ صَيْفِيٍّ التَّمِيمِيُّ بَنِيهِ، فقال:

«يا بَنِيَّ! لا يَغْلِبَنَّكُمْ جَمالُ النِّساءِ عَنْ صَراحَةِ النَّسَبِ، فإنَّ المَناكِحَ الكَرِيمَةَ مَدْرَجَةٌ لِلشَّرَفِ».

ب– ومِنْ وصايا المُلوكِ إلى أَبْنائِهِمْ وَصِيَّةُ المُنْذِرِ بنِ المُنْذِرِ بنِ ماءِ السّماءِ إلى ابنِهِ النّعمانِ، فقد دعاهُ وهو غلامٌ شابٌّ فقال:

«يا بُنَيّ! إنَّ لي فيكَ رَأْيًا دُونَ غَيْرِكَ مِنْ وَلَدِي، فإنِّي آمُرُكَ بما أَمَرَنِي بِهِ والِدِي، وأَنْهاكَ عَمّا نَهانِي عَنْه:

آمُرُكَ بالذُّلِّ في عِرْضِك، وذلكَ أَنْ تَكُونَ ذَلُولاً في المَعْرُوف، وعلَيْكَ الانْخِداعُ في مالِكَ.

وأُحِبُّ لكَ خَلْوَةَ اللَّيْلِ وطُولَ السَّمَرِ؛ وأَكْرَهُ لكَ إخْلافَ الصَّدِيقِ واطِّرافَ المَعْرِفَةِ.

وأَنْهاكَ عَنْ مُلاحاةِ الحُكَماءِ، ومُزاحِ السُّفَهاءِ.

إنَّ لكَ عَقْلاً وجَمالاً ولِسانًا؛ فاكْتَسِ مِنْ ثَناءِ النّاسِ ما يُؤَيِّدُ جَمالَكَ، ودَعِ الكَلامَ وأَنْتَ عَلَيْهِ قادِرٌ، ولْيَكُنْ لكَ مِنْ عَقْلِكَ خَبِيْءٌ تَدَّخِرُهُ أَبَدًا لِيَوْمِ حاجَتِك».

ج– وثَمَّةَ وصايا كان يُدْلِي بها الآباءُ إلى أبنائِهم حين يَبْلُغونَ مِنَ العُمْرِ مَبْلَغًا يَتَوَقَّعُونَ فيهِ المَوْتَ بينَ لَيْلَةٍ وضُحاها، فيشعُرون بأنَّ تَجْرِبَتَهم صارَتْ حَقًّا لأبنائِهم وعليهم أَنْ يُؤَدُّوهُ إليهم؛ فمِنْ ذلك أنَّ الحارِثَ بنَ كَعْبٍ – وقِيلَ: مالِكَ بنَ المُنْذِرِ البَجَلِيَّ، وكانَ عَلى دِينِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ – جَمَعَ بَنِيهِ فذَكَرَ لَهُمْ بَعْضَ أَخْلاقِهِ، ثُمَّ أَوْصاهُمْ، فقال في وَصِيَّتِه:

«... يا بَنِيَّ! كونوا جميعًا ولا تَفَرَّقُوا فتَكُونُوا شِيَعًا، وإنَّ مَوْتاً في عِزٍّ، خَيْرٌ مِنْ حياةٍ في ذُلٍّ وعَجْزٍ؛ وكلُّ ما هُوَ كائِنٌ كائِن، وكُلُّ جَمْعٍ إلى تَبايُن.

والدَّهْرُ صَرْفانِ: فصَرْفُ بَلاءٍ، وصَرْفُ رَخاءٍ، واليَوْمُ يَوْمانِ: فيَوْمُ حَبْرَةٍ، ويَوْمُ عَبْرَةٍ؛ والنَّاسُ رَجُلانِ: رَجُلٌ مَعَكَ، ورَجُلٌ عَلَيْكَ.

زَوِّجُوا النِّساءَ مِنَ الأَكْفاءِ، وَلْيَسْتَعْمِلْنَ في طِيْبِهِنَّ الماءَ، وإيّاكُمْ والحَمْقاءَ، فإنَّ ولَدَها إلى أَفَنٍ ما يَكُونُ.

إنَّهُ لا راحَةَ لِقاطِعِ القَرابَةِ؛ وإذا اخْتَلَفَ القَوْمُ أَمْكَنُوا عَدُوَّهُمْ، وآفَةُ العَدَدِ اخْتِلافُ الكَلِمَةِ.

والتَّفَضُّلُ بالحَسَنَةِ يَقِي السَّيِّئَةَ، والمُكافَأَةُ بالسَّيِّئَةِ الدُّخُولُ فيها، والعَمَلُ بالسُّوءِ يُزِيلُ النَّعْماءَ، وقَطِيعَةُ الرَّحِمِ تُورِثُ الهَمَّ، وانْتِهاكُ الحُرْمَةِ يُزِيلُ النِّعْمَةَ، وعُقُوقُ الوالِدَيْنِ يُعْقِبُ النَّكَدَ، ويَمْحَقُ العَدَدَ، ويُخْرِبُ البَلَدَ؛ والنَّصِيحَةُ تَجُرُّ الفَضِيحَةَ، والحِقْدُ يَمْنَعُ الرِّفْدَ، ولُزُومُ الخَطِيَّةِ يُعْقِبُ البَلِيَّةَ، وسُوءُ الرِّعَةِ يَقْطَعُ أَسْبابَ المَنْفَعَةِ، والضَّغائِنُ تَدْعُو إلى التَّبايُنِ.

ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

أَكَلْتُ شَبابِي فَأَفْنَيْتُهُ وأَنْضَيْتُ بَعْدَ دُهُورٍ دُهُورَا

ثَلَاثَةُ أَهْلِينَ صاحَبْتُهُمْ فَبَادُوا وأَصْبَحْتُ شَيْخاً كَبِيرَا

قَليلَ الطَّعامِ حَسِيرَ القِيَا... مِ قَدْ تَرَكَ الدَّهْرُ خَطْوِي قَصِيرَا».

[الأَفَنُ: الفَسادُ وضَعْفُ الرَّأْي].

د– وهناك وصايا تركَها مجموعةٌ مِنَ السّادة لعشائرِهِمْ عامّةً، فمن ذلك قولُ هُبَيْرَةَ بنِ صَخْرٍ الكلبيّ:

«يا بَنيَّ ويا عَشِيرَتَاه! أُوْصِيكُمْ بِتَقْوى اللهِ والصَّبْرِ على المَضَضِ، ففِيهِ الفَوْزُ، لا فَوْزُ القِسِيِّ.

حافِظُوا على الحُرَمِ، فإنَّ الهَلاكَ في الغَفْلَةِ عنها.

والفَشَلُ في التّخاذُلِ؛ غِيْظُوا العَدُوَّ بِإظْهارِ السُّرورِ، وإبْداعِ الأُمُورِ.

واذْكُرُوا المَجامِعَ والمَواسِمَ يَأْمَنْ سِرْبُكُمْ، فإنَّ المُحافَظَةَ أَمْنٌ.

وإنّما المُعَسْكَرُ لِمَنْ صَبَرَ.

ولْيُحَيِّكُمْ ربُّكُمْ!».

هـ – وهنالِكَ وصايا وجَّهَها حكيمٌ مِنَ الحكماء إلى قومٍ استشارُوه، منها ما كَتَبَ بِهِ أَكْثَمُ بنُ صَيْفِيٍّ في رسالةٍ إلى جُهَيْنَةَ ومُزَيْنَةَ وأَسْلَمَ وخُزَاعَةَ، فقال:

«لا تَفَرَّقُوا في القَبائِلِ، فإنَّ الغَرِيبَ بِكُلِّ مَكانٍ مَظْلُومٌ؛ وإيّاكُمْ والوَشائِظَ، فإنَّ الذِّلَّةَ معَ القِلَّةِ.

إنَّ العارِيَّةَ لَوْ سُئِلَتْ: أَيْنَ تَذْهَبِينَ؟ لَقالَتْ: أَبْغِي أَهْلِي ذَمًّا.

مَنْ يَتَتَبَّعْ كُلَّ عَوْرَةٍ يَجِدْها.

والرَّسُولُ مُبلِّغٌ غَيْرُ مَلُومٍ، ...

أَشْرافُ القَوْمِ كالمُخِّ مِنَ الدَّابَّةِ، فإنَّما تَنُوءُ الدَّابَّةُ بِمُخِّها، ...

والدَّالُّ على الخَيْرِ كفاعِلِه.

والْجَزَاءُ بِالْجَزَاءِ، والبَادِئُ أَظْلَمُ.

والشَّرُّ يَبْدَؤُهُ صِغارُه».